إسهامات علماء التصوف في الإصلاح العقدي والاجتماعي بالسوس الأقصى
-سيدي أحمد أوموسى أنموذجا-

الدكتور حسن العسري
أستاذ زائر بجامعة محمد الخامس
المغرب

مقدمة:

لقد أسدى علماء الصوفية في منطقة سوس خدمات مهمة من خلال مدارسهم وزواياهم، فقد كانوا إلى جانب الأسر الحاكمة سببا في استقرار المجتمع، وحل أزماته السياسية والاقتصادية والاجتماعية بما يقدمونه من دعم مادي ومعنوي، إلى حد يصل إلى الدعوة لحمل السلاح قصد مساعدة السلطة السياسية القائمة ضد أي تهديد كيفما كان داخليا أو خارجيا؛ وقد كانت السلطة الحاكمة تشركها في تدبير الشأن العام إما بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة، بحسب ما تقتضيه الوضعية السياسية والاقتصادية للمملكة، وكانت تعتمد عليها في حل الأزمات، والحد من الاضطرابات والفوضى، والتدخل لإصلاح ذات البين بين القبائل المتناحرة والمتصارعة من جهة، وبين القبائل والزوايا الثائرة على النظام القائم من جهة أخرى، إضافة إلى تقديم الدعم المالي لها من أجل التقليل من التوترات، والتخفيف من الاحتقان والاضطراب.

ولم يقتصر دور هؤلاء الأعلام المتصوفين في المشاركة في الحياة السياسية والاقتصادية، بل كانت لهم أدوار في غاية الأهمية، يمكن اعتبارها المحور المركزي في نجاح زواياهم على مستوى التدبير التربوي والسياسي والاقتصادي، ويتعلق الأمر بالأدوار التربوية، والتعليمية، والتزكوية، والاجتماعية؛ فقد كانت زواياهم بمثابة مدارس وجامعات يتخرج منها الطلاب والمريدون بحصيلة معرفية، وأخلاقية، ودينية، وروحية، تجعلهم يبذلون الغالي والنفيس في خدمة شيوخهم، وامتثال أمرهم، وعدم الخروج عن طاعتهم، بكثرة ما رأوا من كراماتهم وجميل خصالهم، وبكثرة ما أغدقوا عليهم من النعم إبان الطلب حيث لا معين لهم ولا مأوى إلا الزاوية وشيوخها الذين يبذلون قصارى الجهد لإيوائهم، وتعليمهم ورعايتهم.

أهداف البحث:

إن الغاية التي تسعى إليه هذه الورقة، هي بيان إسهامات مشايخ صوفية منطقة سوس في دعوة الناس إلى الدين الحق وما يترتب عليه من مقاصد سامية، في شخص سيدي أحمد أوموسى، والدعوة إلى التوحيد الخالص القائم على الوسطية والاعتدال، وجمع الكلمة، وإصلاح ذات البين، والحث على مكارم الأخلاق، إضافة إلى إبراز الأدوار القيادية في صد الغزو الخارجي، والتيارات والمذاهب المنحرفة؛ وهي غايات كما يرى المتتبع الكريم من صلب اختصاصات المؤسسات النظامية الرسمية، لنبين في نهاية المطاف أن شيوخ التصوف وعلماءه أسهموا في بناء الصرح الحضاري للدولة المغربية، وتثبيت عروش الأسر المتعاقبة على حكم الدولة المغربية، وسنقتصر على أنموذج -والنماذج كثيرة-، نموذج من حكم الأسرة السعدية ويتعلق الأمر بالعالم الصوفي سيدي أحمد بن موسى السملالي أحد أقطاب الطريقة الجزولية الشاذلية.

أهمية البحث

تكمن أهمية هذا البحث في كونه يكشف عن الأهمية البالغة للعلماء عامة، ولشيوخ التصوف خاصة في مجال التربية السلوكية للمسلم المغربي، الأمر الذي انعكست نتائجه على تصورات واعتقادات وتصرفات الساكنة، والطلبة والمريدين والمحبين بحيث يجعلهم يقفون عند إشارات شيوخهم، من أجل تعزيز قيم التآخي والتكافل الاجتماعي، ويقوي أركان التنمية الاقتصادية، ويوطد ركائز الاستقرار السياسي.

إشكالية البحث:

يطرح هذا البحث إشكالية في غاية الأهمية، يمكن صوغها في تساؤلات مركزية، وأخرى ثانوية فرعية على الشكل التالي:

ما هي العوامل التي ساعدت الشيخ سيدي أحمد أوموسى باعتباره من أحد أقطاب الطريقة الجزولية بسوس ومكنته من التصدر وتبوأ أعلى المقامات حتى إن السلطان السعدي عبد الله الغالب منحه العديد من الامتيازات، وأولاه بالتقريب والاهتمام، واستحسن طريقته، وأغدق على زاويته صنوف الهدايا والهبات والظهائر السلطانية؟

وإلى أي حد استطاع سيدي أحمد أوموسى أن يؤثر في نسيج المجتمع وأطيافه عقديا وتربويا واجتماعيا وسياسيا بحيث صارت زاويته الملاذ الروحي للمجتمع، والإطار التنظيمي الأقوى له، والمحرك الأساسي لأي حراك جهادي واقتصادي واجتماعي فكرا وعملا، وتنظيرا وتنزيلا؟

وما المقصود بالزاوية والطريقة؟ وما الفرق بينهما؟ وما هي أبرز الزوايا والطرق الصوفية في منطقة سوس؟ ومن هم أهم أعلامها وشيوخها؟

فرضيات البحث:

سينطلق البحث من فرضيات مؤداها أن تفاعل السلطة السياسية مع مؤسسة العلماء ومؤسسة الزوايا في شخص النموذج سيدي أحمد أوموسى باعتبارهما قوتين متكاملتين من الناحية النظرية يشتركان في المنطلقات، ويتقاربان في الأساليب والوسائل، ويهدفان إلى ربط الإنسان بربه عقيدة وشريعة وسلوكا، هو–أي التفاعل– الضامن الأساسي لاستقرار المجتمع عقديا، وتعبديا، وعلائقيا وأمنيا؛ من خلال ما يقوم به الشيوخ والمربون من أدوار بارزة في حث المجتمع، وإشعال جذوة التضحية بالنفس والمال من أجل إعزاز العقيدة، والذود عن الدين وحياض الشريعة، والدفاع عن الوطن والعرش الذي تربطه به بيعة شرعية تجد مستندها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»[1]. وحديثه عليه السلام: «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات؛ مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عمية، يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة فقُتل؛ فقتلته جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها ولا يفي لذي عهد عهده، فليس مني ولست منه»[2].

الدراسات السابقة:

بالنسبة للدراسات السابقة، فقد اعتمدت في الغالب الأعم على ما كتبه المختار السوسي في موسوعته التاريخية والأدبية "المعسول"، وكتابه الماتع "إلغ قديما وحديثا"، على اعتبار أن الدراسات حسب ما طالته يدي شحيحة في الموضوع، إلا ما كان من كتاب "الزاوية السملالية في مرحلة التأسيس؛ فصول من حياة الشيخ الصوفي أحمد بن موسى السملالي التزروالتي"، للدكتورة خديجة

الراجي، وقد ركزت في مجمل بحثها على السياق التاريخي لظهور الزاوية السملالية وعلاقتها بباقي الزوايا وبالمخزن السعدي، وبالدور السياسي الداخلي والخارجي الذي قام به الشيخ سيدي أحمد أو موسى من أجل توطيد عرش السلطان السعدي عبد الله الغالب.

منهج البحث:

اعتمد هذا البحث على مقاربات منهجية متعددة اقتضتها طبيعة الدراسة، فقد اعتمدت المنهج الوصفي باعتباره منهجا لا غنى عنه لدراسة الظواهر والقضايا العقدية، والاجتماعية، والتربوية، وتقصيها ووصفها بهدف تحديدها، والوقوف عند الأسباب التي أدت إلى حدوثها، وتشخيصها، وإبراز العلاقات القائمة بينها، كما اعتمدت المنهج المقارن للوقوف عند أوجه الشبه والاختلاف في الطرق والوسائل والمقاربات التي اعتمدها شيوخ التصوف في سوس من أجل دورهم الإصلاحي على مستوى العقيدة والسلوك، وتحليل العلاقة بين الثوابت العقدية والقيم السلوكية، والخلوص إلى إمكانية توظيف هذه القيم في العصر الحديث، الذي أصبحت فيه معظم الطرق الصوفية تنحصر في البيوتات، وتقبع في جدران الزوايا، لا تأثير لها في الحياة العقدية والدينية والاجتماعية للناس، إضافة إلى ذلك وظفت المنهجين التحليلي والاستنباطي، من أجل الوقوف على بعض القضايا التي عالجها سيدي أحمد أوموسى بالبلاد السوسية بغية إبراز الدوافع التي جعلته يتبنى هذا الموقف أو ذاك، مستنتجا بعض النتائج من خلال عرض آرائه، وتوجهاته، وأقواله، والوقوف على مجمل طريقته في التربية والتعليم والإرشاد.

خطة البحث:

لقد أتت خطة البحث وفق المنهج التالي، مقدمة ومبحثين وخاتمة: أما المقدمة فقد بينت فيها أهمية الموضوع، وإشكاليته وأسئلته، وبعض الدراسات السابقة التي أشارت إليه، وأهدافه، والمنهج المعتمد فيه، وخطته. وأما المبحث الأول فقد عالجت فيه مصطلحات الطريقة والزاوية والسياق العام الذي نتجت فيه الزاوية السملالية باعتبارها امتدادا للطريقة الجزولية بشكل مقتضب في مطلبين، بينت من خلالهما مفهوم الطريقة والزاوية والسياق المنتج لهما مع بيان الفرق بينهما. أما المبحث الثاني فقد كشفت فيه عن إسهامات سيدي أحمد أو موسى في الإصلاح العقدي والاجتماعي والسياسي في مطلبين. ثم ختمت هذا البحث بخاتمة بينت فيها أهم النتائج والخلاصات، وذيلته بقائمة للمصادر والمراجع.

المبحث الأول: الزاوية والطريقة؛ المفهوم والسياق

إن الغاية من دراسة هذا المبحث هو الوقوف على مصطلحي الزاوية والطريقة، وبيان الفرق بينهما باعتبار الخلط الذي يقع عند مجموعة من المثقفين والدارسين بين اللفظين، فيظنونها مرادفات وما هي بمرادفات. إضافة إلى بيان بعض العوامل التي أدت إلى ظهور هذه الزوايا، وبروزها كأداة للإصلاح الديني والسياسي والاجتماعي في البلاد المغربية عامة، والمنطقة السوسية على وجه الخصوص، ولن أتطرق لترجمة العلم المذكور إذ هو نار على علم من جهة، وحتى لا نخرج عن المنحى الذي لأجله كتبت هذه الورقة، وهو إسهاماته في الإصلاح العقدي والاجتماعي والسياسي ببلاد سوس[3].

المطلب الأول: الزاوية؛ المفهوم والسياق المنتج للزاوية السملالية

يذكر أغلب المؤلفين المعاصرين أن الزاوية كمفهوم مؤسساتي مؤثر في الحياة الدينية والعلمية للمجتمع الإسلامي عامة، والمغربي على وجه الخصوص، لم ينتشر إلا بعد ظهور الرباطات التي كانت هي الغالبة باعتبار مدلولها الشرعي المستمد من قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[4]، وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا

وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[5]، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها»[6].

وقد عرف المغرب الرُّبُط مع الفتح الإسلامي، وورد ذكر (رباط ماسة) بالسوس الأقصى، و(رباط شاكر)، المعروف اليوم بسيدي شيكر على ضفة واد النفيس بحوز مراكش، ورباط تامسنا على حوض أبي رقراق، ورباط عبد الله بن ياسين الذي كان المنطلق لحركة الشيخ عبد الله بن ياسين مؤسس الدولة المرابطية، ورباط (تنمل) معقل الدولة الموحدية، ثم تتابعت الربط وانتشرت في العهد المريني بأمر من السلطان أبي الحسن حيث امتدت من أسفي جنوبا، إلى آخر بلاد المغرب الأوسط وأول بلاد إفريقية (تونس)، وكان الهدف من كل هذه الرباطات جهاد العدو، والدعوة إلى الله، وحفظ الثغور الإسلامية[7].

أما الزاوية في أصلها؛ فقد كانت عبارة عن دار تبنى من أجل إكرام الناس وذوي الهيئات واستضافتهم، ثم تطورت لتصبح دورا تستقبل الحجاج الذاهبين إلى مكة على طول طريق الحج، ولعل أول من بنى هاته الأنواع من الدور سلاطين الموحدين، وكانوا يطلقون عليها اسم "دار الكرامة"، وسلاطين المرينيين، ويطلقون عليها أيضا اسم "دار الضيافة؛ ثم تتابع بناء الزوايا ورغبة الفضلاء والشيوخ في نيل الثواب من الله بإيواء وإطعام ضيوفه الوافدين عليه، وهكذا انتشر بناء الزوايا في البلاد المغربية؛ ومن أقدم الزوايا كما ذكر ذلك الأستاذ حجي؛ زوايا الشيخ أبي محمد صالح الماجري الذي فاقت زواياه أكثر من أربعين زاوية [8].

وأما الزاوية باعتبارها مدرسة للتربية والتعليم، وحركة إصلاحية تدعو إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومجاهدة العدو، فلم تتصدر بالقيام بهذه الأدوار إلا بعد أن تغلب النصارى على المسلمين في الأندلس، وامتدت أطماعهم إلى الثغور المغربية التي أصبحت تعرف نوعا من التقهقر بعد ضعف حكم المخزن، وبعد أن فسدت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والدينية، وساءت الأخلاق، ومرجت العهود، وانتشرت البدع، وقل الحياء، ورق الدين، فبدأت الزوايا تأخذ بزمام الأمور، وأضحى شيوخها يبادرون إلى تعليم الناس وتربيتهم ودعوتهم إلى التشبث بالدين، والتخلق بمكارم الأخلاق، ووضعت يدها في يد السلطة الشرعية الحاكمة التي ترغب في إقامة الدولة على الكتاب والسنة، فتحملوا بذلك مسؤولية الإصلاح العام للبلاد، وعلى رأسه الإصلاح العقدي والديني، والإصلاح الاجتماعي والسياسي.

الفرع الثاني: السياق المنتج للزاوية السملالية

يرجع اشتهار الزاوية السملالية إلى مؤسسها الشيخ سيدي أحمد أوموسى الذي تكاد الروايات المختلفة تتفق على أن الشيخ دخل باب التصوف بسبب دعاء أحد الأولياء الصالحين له بعد حمله قفة له، مما جعله يترك حياة اللهو والعبث، ويلتزم بخطى الشيوخ والعلماء في طلب العلم وتزكية النفس، فغادر بلدته بومروان، وساح في البلاد المغربية والمشرقية، مستفيدا من شيوخها وعلمائها، ومتبركا بزيارة أضرحة أعلامها وأقطابها، ومن بين من استفاد منهم؛ الشيخ الولي سيدي عبد العزيز التباع، الذي لازمه وأخذ عنه الطريقة الجزولية[9].

لقد كان لانتقال سيدي أحمد أوموسى في ربوع البلاد المغربية واتصاله بالعديد من مشايخ التصوف كعبد الكريم الفلاح، وعبد الله الغزواني (مول القصور)، ورحال الكوش، وسعيد بن عبد المنعم الحاحي، وعبد الله بن حسين المغاري، وأحمد بن يوسف الراشدي الملياني، وعبد العزيز التباع وغيرهم أثر في تشكيل توجهه الصوفي، وأخذه سند الطريقة الشاذلية من قناتين، قناة الجزولي عبر شيخه التباع، وقناة أحمد زروق عبر شيخه الملياني الذي دخل في خلوة معه لمدة دامت سنتين[10].

ولما كانت البلاد السوسية محتاجة إلى من يجدد لها أمر دينها عملا بقول النبي صلى الله عليه وسلم: « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[11]، خاصة بعدما فشت فيهم الأعراف المخالفة للشريعة، وأصبحوا يتحاكمون إليها، ورق دين الناس، وكثرت البدع، واستقوى القوي على الضعيف، ولم تعد لأحكام الشريعة حرمة، ولا لأموال الناس حقوق وصيانة، قام الشيخ سيدي أحمد أوموسى بواجب الوقت في الدعوة إلى الله، فبدأ يدعو الناس إلى إخلاص التوحيد، والإذعان لأحكام الشريعة، والالتزام بمبادئها، وأداء الحقوق، وترك الإحن والعداوات، الأمر الذي جعل أفئدة الناس تهوي إليه، لما رأوا من إخلاصه واستماتته في الذب عن الكتاب والسنة والعمل بهما آناء الليل وأطراف النهار، فبدأ صيته يعلو الآفاق، وعمت شهرته الأقاليم والبقاع، خاصة بعدما غادر مسقط رأسه بمنطقة إداوسملال، وانتقل إلى منطقة تزروالت وحط رحاله وأنشأ زاويته بها[12].

ولما كانت البلاد المغربية تعرف غليانا على المستوى السياسي والاجتماعي والاقتصادي، من حيث الاضطرابات المحلية والدولية، وأقصد بالذات، الهجوم البرتغالي على السواحل المغربية، واغتيال السلطان محمد الشيخ بإيعاز من السلطان العثماني سليمان القانوني، وعدم استقرار الوضع الداخلي بكثرة الثورات، والتنازع بين الأمراء على من يحكم المغرب، وفشو الطواعين والأوبئة في ربوع المملكة، زد على ذلك الجفاف والقحط الذي عرفه المغرب في هذه السنوات، كل هاته العوامل، إضافة إلى بروز الزاوية السملالية كفاعل اجتماعي واقتصادي، جعلت سيدي أحمد أوموسى يسارع إلى مد يد العون لا إلى منطقة إداوسملال وتزروالت وضواحيهما فقط، بل تعداهما إلى باقي ربوع المملكة وخاصة مناطق الصحراء، ومناطق الحوز وأسفي، الشيء الذي قوى من شوكة الشيخ سيدي أحمد أوموسى ومن زاويته السملالية بمنطقة تزروالت، مما حذا بالسلطان أبي محمد عبد الله الغالب أن يستنجد بسيدي أحمد أوموسى من أجل بسط نفوذه على ربوع المملكة، وتمهيد الملك له، والتصريح بأنه لا يمكنه العيش بدونه، ولا يأمن على نفسه، ولا تؤويه أرض إذا هو تخلى عنه الشيخ سيدي أحمد أوموسى، الذي كبرت في نفسه هذه الاستجارة من السلطان السعدي، خاصة بعدما لمس فيه الصدق في إقامة الدولة على الأسس الشرعية المنبنية على الكتاب والسنة، مما حذا بالشيخ الاستجابة له، والدعوة إلى إمارته وسلطنته وطاعته وعدم الخروج عليه بقوله المشهور:"يا عرب يا بربر يا سهل يا جبل أطيعوا السلطان مولاي عبد الله ولا تختلفوا عليه"[13].

وإذا أردنا أن نحلل هذا الخطاب، ونقرأ بين سطوره، فإنه يتضح أن الزوايا أصبحت لها سلطة سياسية قوية بإمكانها تغيير نظام الحكم، وتغيير السلطان إن اقتضى الأمر، إذا تبين إخلاله بالشريعة وعدم إقامة شعائرها، مما يحيلنا إلى التساؤل عن علاقة الزاوايا بالمخزن، هل هي علاقة صراع وخلاف وتوتر وخصام وعداء؟ أم هي علاقة وئام وتقدير واحترام وإخضاع؟ وما هو السر في توقير السلاطين للزوايا وشيوخها والإغداق عليهم بالمنح والامتيازات والتي لازالت مستمرة إلى هذا العهد؟ وهل تأخذ الزاوية مشروعيتها من النظام المخزني القائم؟ أم من كونها مؤسسة قائمة الذات بأتباعها ومريديها وهياكلها ومحبيها وانتمائها إلى النسب الشريف، ولا تحتاج إلى اعتراف السلطة الحاكمة بها؟

المطلب الثاني: الطريقة؛ المفهوم والسياق المنتج للطريقة الجزولية الشاذلية

سنحاول في هذا المطلب أن نشير إلى مفهوم الطريقة والغاية منها، وإلى السياق العام الذي ظهرت فيه كل من الطريقة الجزولية التي سار على سننها سيدي أحمد أوموسى في إصلاحه الديني والاجتماعي وارتضاها وربى أتباعه عليها.

الفرع الأول: مفهوم الطريقة

إن مفهوم الطريقة عند الصوفية يختلف عن مفهوم الطريق؛ فالطريق الصوفي هو السبيل الذي يسلكه المريد وصولا إلى المراد، وهو الذي كان معروفا لدى المتصوفة إبان التصوف في مراحله الأولى، حينما كان بشكل فردي، وغاية الطريق هي: "الترقي الخلقي

بالمجاهدة للنفس وإحلال الأخلاق المحمودة محل الأخلاق المذمومة"[14]. فهو سبيل روحاني يصل فيه العبد المتناهي إلى ربه اللامتناهي بما يحصل له من الفيوضات، وينطلق فيه المريد من العقل وأحواله وقوانينه إلى أن يتعداه فيصبح فوق العقل غير ملتزم بقوانينه، نزوعا مطلقا نحو الاتصال بالله إلى درجة الذوبان والفناء في حبه[15].

وقد جمع معنى الطريق الإمام الغزالي حين قال: " الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم، وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة، وأشرق النور في القلب، وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية، فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة، وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة"[16].

أما الطريقة فهي منهج في السير إلى الله يعتمده الشيخ في تربيته للمريدين وفق مدرسة أو اتجاه صوفي، أو وفق نظرة الشيخ بحسب ما يفتح الله به عليه من مناهج في التعلم من أجل الوصول إلى درجة الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك[17].

وبناء على هذا نجد القشيري يؤكد على أن طريقة الصوفية للدلالة على الله أمتن من طريقة غيرهم من الفقهاء والمتكلمين، ويرى أن حجج الطريقة الصوفية في مسائلهم، أظهر من حجج غيرهم، وقواعد مذاهبهم أقوى من قواعد كل مذهب، والناس بحسبه: "إما أصحاب النقل والأثر، وإما أرباب العقل والفكر، وشيوخ الطائفة الصوفية ارتقوا عن هذه الجملة، فالذي للناس غيب فهو لهم ظهور، والذي للخلق من المعارف مقصود فلهم من الحق سبحانه موجود، فهم من أهل الوصول والناس أهل الاستدلال"[18]. فهي على هذا الأساس مجموعة من الأسس والمبادئ والقواعد التي تسطرها المدرسة أو الاتجاه، أو يسطرها الشيخ لأتباعه ومريديه قصد الترقي إلى وراثة أحوال النبي صلى الله عليه وسلم ومعاملاته مع الحق ومع الخلق، من أجل الوصول إلى الله ونيل رضاه[19].

وقد أكد عبد الله العطاس على أن الطريقة عند أهل الحقيقة هي: "مراسيم الله تعالى وأحكامه التكليفية التي لا رخصة فيها، وهي مختصة بالسالكين إلى الله تعالى بمعونة شيخ، يقطع فيها المريد المنازل، ويترقى في المقامات"[20].

وقد عرفت دائرة المعارف الإسلامية الطريقة بأنها: "عبارة عن منهج لعلم النفس الأخلاقى يدبر عمليا ضروب السلوك الفردى؛ وهو جملة مراسيم التدبير الروحى المعمول به من أجل المعاشرة فى الجماعات الإسلامية المختلفة التى بدأت تنشأ منذ ذلك الحين"[21].

ومن هنا يمكن القول إن الطريقة عبارة عن عهد بين شيخ مرب، ومريد عازم على التوبة والاستقامة، يلتزم فيه المريد بآداب الطريقة وأصولها وفق ما سطره له الشيخ من أوراد، وأحزاب، وأذكار، ومجاهدات، ورياضات.

الفرع الثاني: الطريقة الجزولية الشاذلية لسيدي أحمد أو موسى

إن مما تجدر الإشارة إليه أن طرائق مشايخ الصوفية ترجع إلى أئمتهم الأعلام من المنظرين من الطبقة الأولى كالفضيل بن عياض(ت187هـ)، وذي النون المصري(ت245هـ)، وإبراهيم بن أدهم (ت162هـ)، وبشر الحافي(ت227هـ)، والسري بن المغلس السقطي(ت251هـ)، والحارث بن أسد المحاسبي(ت243هـ)، وشقيق بن إبراهيم البلخي(ت194هـ)، وأبي يزيد البسطامي طيفور بن عيسى(ت234هـ)، وأبي سليمان الداراني عبد الرحمن بن عطية(ت215هـ)، ومعروف بن فيروز الكرخي(ت200هـ)، وحاتم بن عنوان الأصم(ت237هـ)، وإلى المؤسسين للاتجاه الصوفي من الطبقة الثانية أمثال؛ أبي القاسم الجنيد بن محمد الخزاز (ت297هـ)، وأبي الحسين النوري أحمد بن محمد(ت295هـ)، ورويم بن أحمد البغدادي(ت303هـ)، وعمرو بن عثمان المكي (ت291هـ)،

وسهل بن عبد الله التستري(ت293هـ)، وأبي بكر الوراق محمد بن عمر(ت240هـ)، وأبي عبد الله المغربي محمد بن إسماعيل(ت299هـ)، وأبي عبد الله بن مسروق الطوسي(ت240هـ)، وغيرهم، حيث كان أغلب هؤلاء يدعون إلى الالتزام بالكتاب والسنة، والإخلاص، وتجديد التوبة، والتقلل من الدنيا، وعدم مخالطة الناس.

وبعد هاتين الطبقتين، وخصوصا في القرن الخامس الهجري، ازداد نشاط الطرق الصوفية من أجل نشر تعاليمها، فأصبحت الحاجة ماسة إلى التنظيم، فانفردت كل طريقة بقواعدها وأسسها، وأصبح على رأس كل طريقة شيخ يلتف حوله المريدون، فلم يعد علاقة فردية بين الإنسان وربه، بل أصبح مؤسسة اجتماعية تقوم على أساس تقديس الشيخ وتبجيله، ومن بين أول الطرق ظهورا في البلاد المشرقية، الطريقة القادرية نسبة إلى مؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني(ت561هـ)، أما في البلاد المغربية فيمكن اعتبار الطريقة الشاذلية نسبة إلى واضعها الشيخ أبي الحسن الشاذلي(ت656هـ)، من أوائل الطرق الصوفية وإن امتد سندها إلى الطريقة القادرية على اعتبار أن شيوخ أبي الحسن الشاذلي تشربوا الطريقة القادرية التي هي الأخرى في أصلها طريقة جنيدية[22]، ثم تلتها الطريقة الجزولية نسبة إلى شيخها محمد بن سليمان الجزولي(ت870هـ).

وللإشارة فإن أصول الطريقة القادرية تقوم على أسس الكتاب، والسنة، والصدق، والاجتهاد، وسلامة الصدور، وسخاء النفس، وبشاشة الوجه، وبذل الندى، وكف الأذى، والفقر، وحفظ حرمة الشيخ والعشرة والإخوان، والنصيحة، وترك الخصومة، وملازمة الإيثار، وصحبة الأخيار، والعهد، والاستغفار، والتوبة، والطاعة، والذكر، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم[23]. وقد زاد فيها من أتى بعدهم بعض المعالم كلبس الخرقة[24].

أما أصول الطريقة الشاذلية فنجملها في العمل بالقرآن، وتقوى الله في السر والإعلان، واتباع السنة في الأقوال والأفعال، والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، والرضا عن الله في القليل والكثير، والرجوع إلى الله في السراء والضراء، والورع، والإخلاص، والتوبة، والذكر[25].

وأما أصول الطريقة الجزولية فتتلخص في العمل بالقرآن والسنة، والصبر، والشكر، والرضى، والتوكل، وملازمة الشيخ، والتوبة، ومراعاة آداب المجالسة والمخاطبة، والتزام الصدق، والمداومة على ذكر الله هيللة وحوقلة واستغفارا، والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتقلل من الدنيا، والجد والاجتهاد وترك البطالة، والدعوة للجهاد.

وعودة إلى الشيخ أحمد أوموسى، فإن أغلب الكتابات حوله تتفق على أنه لم يخرج عن هذا الطريق الصوفي لمن سبقوه، إلا فيما ندر، كاهتمامه بالرياضات البدنية الساعية إلى تقوية الجسم، والاهتمام بالرماية، على اعتبار أن الفترة التي عاشها كانت تتطلب القوة البدنية من أجل المشاركة في جهاد العدو، وأيضا دعوة المريدين إلى التفاني في خدمة الزاوية باعتبارها مقرا يفد عليه فيه ألوف الطلبة والقاصدين[26].

المبحث الثاني: إسهامات سيدي أحمد أو موسى في الإصلاح العقدي والسلوكي، والإصلاح الاجتماعي والسياسي

إن الدارس لمناقب الشيخ سيدي أحمد أوموسى، ليدرك من خلال سيرته أنه كان من الفاعلين الذين أثروا في مجتمعه تأثيرا بليغا، وأسهموا في تطويره ورقيه ونمائه على جميع الأصعدة والمستويات من خلال حركته الإصلاحية العامة، وأبرزها الإصلاح العقدي والسلوكي، والإصلاح الاجتماعي والسياسي.

المطلب الأول: إسهامات سيدي أحمد أو موسى في الإصلاح الديني والعقدي

لقد كان للنسب الشريف لسيدي أحمد أوموسى، إضافة إلى فطنته، وذكائه، وفيوض علمه، وقوة شخصيته دور كبير في بناء الزاوية السملالية بمنطقة تزروالت، التي كانت محجا للطلبة والمريدين والمحبين، يشربون من معين علومها، ويكرعون من حياض آدابها، وأخلاقها.

فقد دعا الشيخ الناس كافة من خلال ما تقدمه الزاوية من الدروس والمواعظ إلى التوحيد الحق لله، وعدم الإشراك به، والتزام الكتاب والسنة في الأقوال والأفعال، خاصة وأن القطر السوسي بدأ يعرف نوعا من الانحراف على مستوى التصورات والسلوكات، فقد ظهرت بعض الطقوس الشركية المخالفة لما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم من بعض رؤوس القبائل، كقبيلة "أيت حربيل"، الذين دعاهم الشيخ إلى العمل بالكتاب والسنة، والأوبة إلى ما كان عليه سلف الأمة من الوقوف عند حدود الشرع بفعل الأوامر واجتناب النواهي، وترك الأعراف المنافية للشريعة، فأبوا، واستنكفوا وتأففوا من ذلك؛ فما كان منه رحمه الله إلا أنه أنكر عليهم عقائدهم الباطلة وعزم على محاربتهم مع قبيلة مجاط الذين أجلوهم عن الديار السوسية فتفرقوا شذر مذر[27].

وقد دعا الشيخ رحمه الله تعالى طلبته ومريديه والناس أجمعين بتصحيح الإيمان، والاعتقاد في الله الاعتقاد الصحيح، وأنه سبحانه الفاعل المختار لكل شيء، وأنه هو مسبب الأسباب، فلا سبب إلا به، ولا نعمة إلا منه ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[28]، لذا وجب الفرار إليه في كل وقت وحين، والاستجابة لقوله: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾[29]، إذ الفرار إلى الله حسب سيدي أحمد أوموسى هو فرار شمولي عام يشمل كل فرار من مكان لا يسلم فيه دين المرء من مخالفة أمور الحق سبحانه وتعالى تصورا وتصديقا واعتقادا وعملا، فمن فر من السوق إلى المسجد فقد فر، ومن فر من المسجد إذا رأى فيه منكرا إلى داره فقد فر، ومن فر من داره إذا كان فيها ما يشغل عن الله إلى موضع آخر فقد فر[30].

وقد حذر رحمه الله تعالى العامة والخاصة من ادعاء أوصاف الربوبية التي لا تليق إلا بالله تربية لهم على الافتقار، والتواضع، والإحساس بالعجز، وإثبات كل هذه الأوصاف إثباتا حقيقيا لله تعالى، فهو الغني المطلق في غناه، مالك خزائن السموات والأرض،﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[31]، وهو القوي المطلق الذي لا حد لقدرته، فلا أحد يعجزه عن فعل شيء،﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[32]، وهو العليم الذي لا حد لعلمه، ولا يبلغ أحد علمه؛ لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، وكيف يبلغونه وهو الذي يعلمهم ويوحي إليهم ويلهمهم، ويمدهم بآلات العلم التي خلقها لهم من الأسماع، والأبصار، والألسنة، والعقول التي لولاها ما علموا شيئا ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[33]. وقد حض رحمه الله تعالى على ضرورة النظر بنور العقل، والتفكر بعين القلب في الله أسماء وصفاته، أنه سبحانه المختص بأوصاف الألوهية والربوبية دون ما سواه، وأن كل ما عداه من الإنس، والجن، والأملاك، والروحانيين، وسائر المخلوقين لا يليق بجميعهم إلا أوصاف العبودية، فهو الإله الحق الذي وجب التوجه إليه بالعبادة ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[34]، وكل من ادعى نسبا، أو شيئا من أوصاف الربوبية لنفسه أو لغيره من الخلائق قولا، أو إشارة، أو اعتقادا، كنسبة ذلك للأشياخ، أو العلماء، أو الملائكة، أو غيرهم، فقد خسر خسرانا مبينا، وهلكت سفينته في بحر الهلاك، وأودية الشرك، نسأل الله العصمة والسلامة[35].

وسيدي أحمد أوموسى لا ينكر الكرامات التي يحلي الله تعالى بها خواصه من الأنبياء والصديقين والأولياء والصالحين، شريطة أن يعتقد المؤمن بها، أو المتصف بها أنها محض رحمة واختصاص من الله تعالى، لا مدخل فيها للرياضات أو المجاهدات ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ

مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[36]، وكل من اعتقد أن الرسول أو سائر الأولياء هم الخالقون لما ظهر عليهم من المعجزات والكرامات، فقد أشرك مع الله غيره[37].

وكثيرا ما ينطلق الشيخ سيدي أحمد أوموسى في بناء العقيدة في النفوس من الآيات القرآنية، حتى يهدم كل انحراف عقدي وخاصة الشرك الذي كاد يكون ظاهرة ذلك الزمن، وذلك لاعتقاد الناس في المشايخ والعلماء وأرباب بعض الزوايا التي ليس الغرض من إقامتها إلا نيل الحظوة من الناس، والتصدر للرياسة.

وهو يحذر من صحبة هؤلاء المشار إليهم من الشاطحين المترخصين، المتلاعبين الذين لا يرجعون إلى أصل صحيح، ولا ظاهر مستقيم، ويرفضون المعاملات الشرعية، ويدعون منازل الخصوصية، فصحبة هؤلاء وملاقاتهم سم قاتل، فإن الطباع تسرق الطباع، وعدم الاغترار بما يظهر منهم من الكرامات، كأخبار الغيب، أو صدور كلمة يوافقها القدر فتصدُق، ونحو ذلك، فإن ذلك يقع من الصادق ومن الكاذب، ومما يستدل به على تحريم اتباع هؤلاء إن كانت ظواهرهم مخالفة لبواطنهم قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾[38]؛ بل إن سيدي أحمد أوموسى يذهب أكثر من ذلك في تصحيحه للاعتقادات والتصورات وخاصة إن تم تضليلها وتزييفها بادعاء علم الباطن، وأن علم الباطن هو الأساس، والظاهر إنما هو للمبتدئين والعامة، فهو يرى أن هؤلاء الذين يوهمون أصحابهم أن العلم الظاهر حجاب، ولم يدروا أنه لا يصح شيء من الباطن إلا بعد تصحيح الظاهر بالعلم، إذ الطريق إلى الله كله مبني على العلم ، ثم العمل، ثم الفتوحات والمواهب من الله تعالى، فمن لا علم له، لا عمل له ، ومن لا عمل له ، لا موهبة له، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من عمل بما علم، أورثه الله علم ما لم يعلم»[39].

والتربية العقدية في شقيها العقدي والصوفي تقوم على مبدأين عند سيدي أحمد أو موسى، الأول: المجاهدة، والثاني: الإرشاد، وهذين المبدأين خولا له استقطاب العديد من العوام والخواص على حد سواء، باعتبار الوسيلة التي كان يتبعها رحمه الله في التربية والدعوة إلى الله، فقد كان جهّارا بالحق، صدّاعا به، لا تأخذه في الله لومة لائم، خاصة إن كان بين المقربين إليه من المحبين والمريدين، فقد كان يصل الأمر إلى استعمال العقاب الجسدي ممن يصر ولا يرعوي، أما غيرهم فقد كان يكتفي بالإرشاد والنصح تأليفا لقلوبهم، واستمالة لهم للدخول في الطريقة[40].

وكما اعتمدت طريقته على المجاهدات البدنية التي من شأنها تقوية الجسم، وحضها على الصبر، بحيث يمكن القول إن طريقة سيدي أحمد أوموسى تعد من بين الطرق التي اهتمت بالرماية، والغرض من ذلك تدريب الطلبة والمريدين ليس على جهاد النفس فقط، وإنما أيضا على جهاد العدو، فقد اعتمدت كذلك على تطهير الباطن وتصفيته، وتنقية القلب من كل الشوائب والشواغل والصوارف، وإخلاص النية لله تعالى، وصدق التوجه والالتجاء إليه، إذ الأعمال بالنيات[41]، والقناعة والرضا باليسير من العيش والمسكن، والتمرن على شظف العيش، وعدم التطلع إلى الدنيا، وترك السعي وراء المال، وتحري الحلال، والاقتصار عليه، ومبادرة شغل الأوقات بالتحصيل، وعدم التسويف، والمبالغة في الاجتهاد، واعتزال من في خلطته مفسدة في الدين والدنيا، ومصاحبة الأتقياء الأنقياء، وملازمة الشيوخ والصبر عليهم، والتخلق بأخلاقهم، وتتبع إشاراتهم، والتواضع بين أيديهم، وشكر صنيعهم، وملازمة الأسحار قياما واستغفارا وذكرا وتهليلا وتسبيحا، واستحضار المراقبة، واستشعار الافتقار، والاعتراف بالتقصير، ومجاهدة النفس ورياضتها لتخليصها من آفات الكبر والعجب والرياء والحسد وحب الدنيا بحسب المستطاع.

من هنا يمكن القول إن سيدي أحمد أوموسى استطاع بفضل علمه، وعمله، وذوقه، وما أظهره الله على يديه من الكرامات، وإجماع أهل العلم من علماء الظاهر والباطن عليه في تلك الفترة، أن يزرع في نفوس الخاصة والعامة الاعتقاد الصحيح، والعمل الصائب، القائم على موافقة الكتاب والسنة، وكيف لا تكون طريقته موافقة للكتاب والسنة ومن دعائه المأثور: "اللهم رب الإيمان والإسلام والكتاب والسنة، بحرمة الإيمان والإسلام والكتاب والسنة، أحيني على الإيمان والإسلام والكتاب والسنة، وأمتني على الإيمان والإسلام والكتاب والسنة، وابعثني على الإيمان والإسلام والكتاب والسنة فإنه لا إله إلا أنت إني كنت من الظالمين"[42].

المطلب الثاني: إسهامات سيدي أحمد أو موسى في الإصلاح الاجتماعي والسياسي

لما تكاثر الأتباع والمريدون على سيدي أحمد أوموسى بمنطقة تزروالت التي استقر بها ووضع بها زاويته، وبعد أن غادر مسقط رأسه بومروان التي كانت منطقة تعرف بالجدب وقلة الزرع والماء، قام الشيخ رحمه الله تعالى بما تقتضيه مراسيم الطريقة الجزولية في تربية الطلبة والمريدين من قيامها على أساسين؛ الأول: الجهاد من أجل الرفع من المردودية ومقاومة الفقر والخصاص. والثاني: الجهاد بحمل السلاح، ومحاربة العدو البرتغالي الذي أغار على الثغور المغربية واحتل بعض السواحل[43].

أما عمله من أجل الحد من الفقر والمسغبة والجدب والإسهام في الحد من تردي الأوضاع الاجتماعية في المغرب عامة، والبلاد السوسية خاصة، فقد دعا أتباعه ومريديه ومحبيه إلى استصلاح الأراضي، وحفر الآبار، والاشتغال بالزراعة، والاهتمام بالتجارة والأعمال المهنية، مما يدل على أن طريقته طريقة سنية تعمل بأحاديث الرسول الله الحاثة على العمل كقوله عليه السلام: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها»[44]، وقوله صلى الله عليه وسلم: « ما أكل أحد طعاما قط، خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده)»[45]، وغيرها من الأحاديث المرغبة في العمل والكسب في مختلف مجالات الكسب، بخلاف غيرها من الطرق التي تدعو إلى الانعزال والانطواء وعدم المشاركة الاجتماعية والاكتفاء بالذكر والخلوة، أو الطرق التي تدعو إلى الإشراق القائم على معرفة الله من طريق الكشف أو نتيجة لانبعاث نور من العالم غير المحسوس إلى الذهن، والمستند إلى ظهور الأنوار الإلهية في قلب العارف، وهي طرق مغرقة في التجريد، بعيدة عن المنبع الصافي، منبع النبي صلى الله عليه وسلم، أو كبعض الطرق المنتشرة في زمننا القائمة على الإنشاد والمديح.

ولأجل ذلك كله، فقد جعل الشيخ أحمد أوموسى من مهمتي الإنفاق والإطعام أبرز الخدمات التي تسعى زاويته إلى تقديمها للمريدين والزوار، بل إنه يربط استحقاق المقامات بالإنفاق والإطعام قائلا: "كيف أستحق المقامات عند الله إن دخل ضيفي بجوع وخرج بجوع"[46].

وفي إطار تقليص الفوارق الاجتماعية وإسهاما منه في الحد من الفقر الذي كانت تعانيه بعض الفئات الهشة في منطقة سوس جراء الجفاف، والكوارث الطبيعية، وشح الموارد، وكثرة الأمراض والأوبئة بسبب الطواعين التي ضربت المغرب، فقد كان الشيخ سيدي أحمد أوموسى يعمل على توزيع الصدقات والفقراء والمحتاجين، وتوزعت هذه الهبات والأعطيات لتشمل الملابس والمال وبعض الأدوات التي تمكن الإنسان من العمل، وعدم الاكتفاء بالاستجداء وطلب الحاجة، وبالفعل استطاع الشيخ أن يبث في المريدين روح العمل الجماعي وعدم الاتكالية من أجل النهوض بالبلاد المغربية عامة، والمنطقة السوسية خاصة، واستطاع بفضل دعوته واستجابة المريدين أن تبلغ تجارته تخوم الصحراء المغربية، بل تجاوزت حتى حدود القارة، فأصبح يتعامل مع البلدان الأوروبية في إطار المبادلات التجارية. وأصبح صيت الزاوية، وصيت المنطقة ينتشر في البقاع والأصقاع، وأصبحت رقما صعبا يحسب له ألف حساب حتى في المجال السياسي[47].

وأما المجال السياسي، وإسهام الشيخ في إرساء الاستقرار السياسي داخل وخارج المملكة المغربية، فهو أمر متفق عليه بين جميع من أرخ لتلك الفترة، سواء كان من أتباع الشيخ، أو من محبيه، أو حتى ممن له طريقته وزاويته الخاصة، فقد وقع الإجماع عليه من طرف علماء وصوفية الوقت، وشهدوا له بالعلم، والورع، والولاية، والحنكة، والحكمة.

فلم يكن تصوف سيدي أحمد أوموسى تصوف مسكنة وعزلة ومسالمة، بل كان تصوفا ديناميا حركيا فرضته عليه أحكام الشريعة التي يدعو صاحبها عليه الصلاة والسلام إلى الجهاد، مؤكدا على أن ذروة سنام الإسلام مجاهدة أعداء الله تعالى[48]، كما فرضته عليه طبيعة الوقت، حيث كان المغرب يعرف صراعا سياسيا داخليا وخارجيا، أما الصراع الداخلي فيتمثل في الفتن والقلاقل التي تركها انهيار الدولة الوطاسية، والمحاولات الجادة للدولة السعدية الفتية بسط نفوذها على تراب المملكة، بعد أن ظهرت طوائف، وزوايا، وقبائل ثائرة منها من يدعو إلى الخروج على السلطان واعتباره غير شرعي، ومنها من دعت إلى نفسها وأنها الأولى بسياسة البلاد والخروج بها من الأزمات[49]. أما الصراع الخارجي فيتمثل في الهجوم الصليبي البرتغالي على الثغور المغربية ومحاولاته في الاستيلاء على بعض السواحل، كل هذه الظروف قادت الشيخ سيدي أحمد أوموسى قياما بواجب النصيحة والدعوة إلى الله الدخول في المعترك السياسي، وممارسة العمل الجهادي، وعدم الاقتصار على المسالمة والمهادنة والاكتفاء بتربية المريدين وتعليمهم وتلقينهم الأذكار والأوراد؛ بل إنها تربيهم على حمل السلاح إن اقتضى الأمر ذلك؛ ومما يدل على ذلك، أن للزاوية السملالية سند في تعليم الرماية، فقد أخذ عنها طوائف من الناس وعلى رأسهم قبائل ولاد أحمر الآسفيين[50]. كما يظهر في دعوته إلى الثورة على العثمانيين الأتراك الذين اغتالوا السلطان السعدي محمد الشيخ، مما حدا بالأتباع والمريدين إلى معاداة السلطنة العثمانية، وتعقب كل من سولت له نفسه من الأتراك العثمانيين أو الموالين لهم سواء من الداخل أو من الخارج وقتلهم لأنهم أصبحوا رؤوس فتنة، وخرجوا عن السلطان، ونصوص الشريعة تضمن قتل من خرج عن الجماعة، وكسر بيضة المسلمين، ونازع إمامهم[51]. وقد كان لهذين العاملين الأخيرين، التهديد العثماني والغزو البرتغالي، دورا حاسما في تقريب الشقة بين السلطان السعدي، والشيخ سيدي أحمد أوموسى الذي أصبح مستشارا للملك السعدي بعد ضمان هذا الأخير ولاء القبائل السوسية وعدم الخروج عنه أو إثارة أي قلاقل ضده.

إن استمالة المخزن السعدي ومصالحته للزوايا عموما وللزاوية السملالية خصوصا في شخص شيخها سيدي أحمد أوموسى، كان نابعا من يقينه التام بأن هذه الشخصية هي التي بفضلها يمكن نشدان الاستقرار السياسي داخليا وخارجيا، مما يدفعنا إلى التساؤل عن محل الزوايا والطرق المناوئة للسلطان السعدي خاصة الزاوية والطريقة القادرية المشرقية المشرب والمتعاطفة مع السلطنة العثمانية، وهل أمكن للسلطان القضاء عليها كلية، أو أنه استعان بمن يمكنه التأثير عليها حتى تدعو هي الأخرى إليه؟

لقد كان لولاية الشيخ سيدي أحمد أوموسى وظهور بركاته وكراماته التي طارت بها الركبان، دور مهم في جعله محل احترام وتقدير حتى من الشيوخ الذين لهم زوايا وطرق مختلفة المشرب مع طريقته وانتمائه الجزولي الشاذلي، ونخص بالذكر الشيخين العالمين الجليلين المربيين عبد الرزاق الدرعي شيخ الزاوية القادرية في تنمسلا بأفلاواسيف[52]، والشيخ أحمد أدافال الدرعي الذي أخذ الطريقة الدرقاوية عن شيخه محمد بن محمد بن عبد الرحمن البكري الصديقي[53]، وقد أثرت هذه الصداقات بشكل كبير في الحد من التوتر الداخلي، على اعتبار أن السياسة العثمانية حاولت بث الفرقة بين الزوايا والطرق من أجل تسهيل فرض سيطرتها على البلاد المغربية، واستمرار تدفق تجارة الذهب من الصحراء نحو الإيالة العثمانية بالجزائر، غير أن فطنة الشيخ سيدي أحمد أوموسى حال دون تحقيق هذه الأطماع فوحد كلمة شيوخ الزوايا على كلمة سواء، تمثلت في نصرة السلطان القطب الصوفي عبد الله الغالب[54]، والتصدي للغزو الصليبي الذي تشنه كل من البرتغال وإسبانيا على الثغور المغربية.

ولم يكتف الشيخ سيدي أحمد أوموسى بأداء دور الوساطة بين السلطان السعدي والزوايا المشرقية الموالية للسلطنة العثمانية، بل إنه أسهم في الحد من التوتر القائم بين الزوايا المغربية المناوئة للاستبداد المخزني السعدي[55]، ونخص بالذكر زاوية سيدي عبد الله بن الحسين المغاري بمراكش الذي خرج منها إلى تمصلوحت، حيث إن الشيخ سيدي أحمد أوموسى تمكن من منح حصانة للزاوية ولشيخها ضد أي تعسف من السلطة السعدية، واعتبار هذه الحصانة بمثابة عربون محبة وصداقة لنيل بركة الأشراف المغاريين[56].

ويتبين من خلال هذا التدخل، أن الشيخ سيدي أحمد أوموسى لا يقر بالظلم ولا يعترف به، وإن صدر من الحاكم، إذ الواجب على المربي أن ينصح له عملا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدين النصيحة، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[57].

ومن خلال هذه الوساطة أيضا؛ يظهر جليا حقيقة العجز البنيوي للسلطة الحاكمة عن تربية وتكوين أفراد المجتمع بمفردها، ودون إشراك باقي القوى المحلية الأخرى المتمثلة في سلطة الزاوية وسلطة شيخ الطريقة، الذي يظل حضوره أمرا حتما لا محيد عنه في توجيه الرأي العام –الطلبة والمريدين– نحو نظام بعينه.

وهكذا يظهر الدور الريادي لسيدي أحمد أوموسى في حمل المجتمع السوسي والصحراوي خاصة، والمغربي عامة على الانخراط في الإمارة الجديدة في إطار حركة صوفية سنية هدفها إقرار الأمن والسلم المجتمعيين بتدعيم السلطة الحاكمة وفق منهج يمتح من النبع الصوفي بمختلف طرقه وزواياه، القائم على العمل بكتاب الله وسنة رسوله وكيف أنه استطاع بمعية الزوايا والطرق الأخرى أن يغيروا خريطة البنية السياسية في المجتمع الذي ينتمون إليه.

من هنا يمكن القول إن شيوخ التصوف وعلماءه لم يكونوا بمعزل عن الناس، فهم ألصق الناس بالمجتمع الذي يعيشون فيه، ورغم أنهم لا يميلون إلى الاستئثار بالسلطة، ولا يتطلعون إليها، ولا تشرئب أعناقهم لتحمل مسؤوليتها، فإنهم وبكون الواجب الذي يفرضه الدين عليهم في التوجيه والتربية والتعليم والتزكية، يصبحون هم حاملي لواء التغيير والإصلاح الشامل والمتكامل للمجتمع، الأمر الذي ينتج عنه تعدد وظائفهم، فمنهم من يرى أن الإصلاح يجب أن يقتصر على ما هو تربوي وتزكوي بحث في شقيه الاعتقادي والتعبدي، ومنهم من يرى أن الإصلاح يجب أن يكون منصبا على الجانب الاجتماعي والاقتصادي المتعلق بالحض على العمل والتعاون على الخير، والتكافل مع ذوي الاحتياج، و منهم من يرى أن الإصلاح ينبغي أن يقتصر على الجانب السياسي المتعلق بالذب عن الحوزة ضد الغزو الخارجي، ومنهم من جمع كل هاته الجوانب كسيدي أحمد أوموسى. وهم بهذه الإسهامات يمنحون العلم، والأمن، والسلم، والرخاء، والاستقرار، والحماية، وسبل الخلاص المادي والروحي لمجتمعهم، وبالمقابل؛ فإنهم يشترطون الطاعة والصبر على كافة أشكال الخدمة التي يراد منهم تقديمها، من مال، وقوة العمل من المحيط الذي يعيشون فيه اعترافا بما ينالوه من أفضالهم وبركاتهم ودعائهم وكراماتهم.

خاتمة

من خلال ما سبق؛ يمكن الخروج بنتائج وخلاصات أوردها على الشكل الآتي:

- إن الشيخ سيدي أحمد أوموسى، استطاع أن يغير المجتمع الذي عاش فيه، بفضل ذوقه الصوفي، وسياحاته المتكررة، وعلمه بظاهر الشريعة، حيث إنه زاوج في تربيته الصوفية بين ما هو تعبدي، وما هو اعتقادي، وما هو اجتماعي، وما هو اقتصادي، وما هو سياسي، فليست التربية عنده مجرد مجاهدات، وعبادات، وأذكار، وصلوات، وصوم، وأوراد يقتصر نفعها على فاعلها ولا يتعدى نفعها المجتمع، وليست هي مجرد اعتقادات جوفاء غارقة في التجريد، وليست هي أذواق إشراقية تسعى إلى معرفة الله عن طريق الكشف، أو عن طريق انبعاث الأنوار من العالم غير اللامادي إلى الذهن، بل هي تربية سُنية محمدية شمولية متكاملة تجعل المريد باقيا غير فان، حاضرا غير غائب، جامعا بين حسن الاعتقاد وحسن العبادة وحسن السلوك، متحملا مسؤوليته، فاعلا في مجتمعه، مساهما في بنائه اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وسياسيا دنيا وأخرى.
- إن الشيخ الصوفي المربي هو ابن عصره، وهو يتبع المنهاج التربوي والتزكوي الملائم لعصره، والمناسب لمريديه.
- ليس الغاية من تنويع الأساليب والطرائق التي يلزم بها شيوخ التصوف أتباعهم ومريديهم من الذكر، والتفكر، وكثرة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، والخلوة، والسياحة، والصوم، والتفاني في العمل، وتعليق السبحة، ولبس المرقعة؛ التباهي والتميز، وإنما الغاية منها قياس مدى قدرة هؤلاء على الالتزام في السير إلى الله، واختبار قوة صبرهم في قهر النفس وقمع رعونتها وكسر أنانيتها، وإخضاعها حتى تكون كلها لله.
- إن جوهر التربية الصوفية واحد لا يتغير، وإن تغيرت الطرق والأساليب والوسائل وهو الوصول إلى الله والرضا به ربا، وبالإسلام دينا ومنهجا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا.

الهوامش:

1 أخرجه مسلم في صحيحه، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، كتاب الإمارة، رقم: 1851.

2 أخرجه مسلم في صحيحه، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، كتاب الإمارة، رقم: 1848.

3 ومن أراد الوقوف على ترجمة الشيخ أحمد أوموسى، فعليه بالكتابات التي اهتمت بالتأريخ لفترة الحكم السعدي مثل: الحركة الفكرية في عهد السعديين، لمحمد حجي. والزاوية الدلائية لمحمد حجي. والدرر النفيسة في ذكر جملة من حياة الشيخ سيدي أحمد بن موسى، لمولاي التهامي غيتاوي. والزاوية السملالية لخديجة الراجي. والتصوف المغربي مصدر إشعاع وتواصل، وهو كتاب جماعي من منشورات جامعة ابن طفيل، وقد خصصت بعض مقالاته للتعريف بسيدي أحمد أوموسى.

4 سورة الأنفال، الآية 60.

5 سورة آل عمران، الآية 200.

6 أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم: 2735، وتمام الحديث: عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله، أو الغدوة، خير من الدنيا وما عليها).

7 الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، محمد حجي، مطبعة النجاح الحديث، 1988/1409. ص 23/21.

8 الزاوية الدلائية، ص 24.

9 الزاوية السملالية في مرحلة التأسيس، خديجة الراجي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة ابن زهر، سلسلة الكتب الرقمية إصدار 2020. ص 27/25.

10 الزاوية السملالية في مرحلة التأسيس، ص 30.

11 أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة، رقم: 4291.

12 المعسول، محمد المختار السوسي، الطبعة المغربية، دون تاريخ ودون طبعة، ج12/11-15.

13 الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، خالد الناصري، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب - الدار البيضاء، طبعة 1954. ج5/47.

14 تاريخ الطرق الصوفية في مصر، فريد دي يونج، ترجمة: عبد الحميد فهمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص 1995.

15 التفسير القرآني واللغة الصوفية في فلسفة ابن سينا، حسين عاصي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، طبعة سنة 1982. ص 20.

16 إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، دار المعرفة – بيروت، طبعة 1982م. ج3/19.

17 إشارة إلى الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، رقم: 36.

18 الرسالة القشيرية، عبد الكريم بن هوازن القشيري، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى دون تاريخ، 571/2.

19 الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي في البلاد التونسية، العجيلي التليلي، منشورات كلية الآداب بمنوبة، تونس، 1992م، ص 35.

20 ظهور الحقائق في بيان اللطائف، لعبد الله علوي العطاس، مطبعة بكراز حسني، طبعة سنة 1312هـ. ص 19.

21 موجز دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة مؤلفين، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الطبعة الأولى 1418هـ - 1998م. 838/3.

22 التصوف الإسلامي في المغرب، علال الفاسي، إعداد عبد الرحمان بن العربي الحريشي، مطبعة الرسالة الرباط، طبعة سنة 1998م. ص 93.

23 الطرق الصوفية في مصر، ص 78.

24 دور الطرق الصوفية في منطقة الأوراس، إسماعيل خنقوف، بحث ماجستير، إشراف صالح فركوس، جامعة باتنة الجزائر، موسم 2012/2011. ص 36.

25 المدرسة الشاذلية الحديثة وإمامها أبو الحسن الشاذلي، عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة، دون طبعة ودون تاريخ، ص 124-140.

26 من هنا، نخلص إلى أن تلك الحركات (البهلوانية) التي تؤديها فرقة أحمد أوموسى في ساحات "جامع الفنا" بمراكش، إنما هي مستوحاة من التدريبات البدنية القاسية التي كان الشيخ سيدي أحمد أوموسى يربي عليها أتباعه من أجل تسلق أسوار القلاع وفتح الثغور، وليست كما يظنه الكثير من الناس أنها مجرد حركات يتوجه بها إلى جمهور المتفرجين للاستجداء ونيل الإعجاب.

27 المعسول، 12/12.

28 سورة النحل، الآية 53.

29 سورة الذاريات، الآية 50.

30 المعسول، 47/12.

31 سورة فاطر، الآية 15.

32 سورة فاطر، الآية 44.

33 سورة الإسراء، الآية 85.

34 سورة البينة، الآية 5.

35 المعسول، 48/12.

36 سورة آل عمران، الآية 74.

37 المعسول، 49/12.

38 سورة المائدة، الآيتان 116-117.

[39] إحياء علوم الدين، 71/1. الحديث أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وضعفه.

[40] الزاوية السملالية في مرحلة التأسيس، ص 39.

[41] إشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه». رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم: 1. من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

[42] الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، عبد الرحمن التمنارتي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 2007م. ص 185.

[43] الزاوية السملالية في مرحلة التأسيس، ص 41.

[44] أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب اصطناع المال، رقم: 479. الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق سمير الزهيري، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة: الأولى، 1998م، ص 242.

[45] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، رقم: 1966.

[46] الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة،

[47] الاستقصا، 49/5.

[48] إشارة إلى الحديث الذي أخرجه أحمد في مسنده، من مسند معاذ بن جبل حين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عمل يدخله الجنة، ويباعده من النار، فقال صلى الله عليه وسلم: «أن تعبد الله لا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم شهر رمضان، وتحج البيت» ثم قال له صلى الله عليه وسلم: «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ فقال معاذ: بلى يا رسول الله، قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قال: قلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه قال: اكفف عليك هذا، فقلت: يا رسول الله، أوإنا لمأخوذون بما نتكلم؟ قال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو قال: على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم». انظر، مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، طبعة 1431هـ، رقم: 22016.

[49] ومما يبرز قضية الصراع بين المخزن السعدي، وبين شيوخ بعض الزوايا قول السلطان السعدي محمد الشيخ في حق شيوخ بعض الزوايا مما يظهر أن الوضع كان يتميز بنوع من الاضطراب وعدم الاستقرار الكلي: "سيدي عبد الرحمن بن موسى، يخاف الله ولا يخافنا، وسيدي محمد بن إبراهيم يخاف الله ويخافنا". انظر الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، ص 66.

[50] تذكر الأستاذة خديجة الراجي أن العمل الجهادي لم يكن عملا عشوائيا، أو خاصا، بل كان عملا منظما إما يقوم به المخزن، أو يقوم به شيوخ الزوايا، وحين يتعلق الأمر بشيوخ الزوايا فالأمر لا بد فيه من السند، حتى لا تكون أعمال الزوايا خارجة عن الطريقة التي أنشأت لأجلها، فكل عمل أو قول لا بد فيه من الإذن، ولا بد فيه من السند، وقد ساقت سند الرماية من أولاد أحمر إلى الشيخ أحمد أوموسى الذي أخذها عن أشياخه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في رحلته وسياحته إلى البلاد المشرقية فقالت: "وقد أخذنا الرماية من الأب الأبر الأرضى الرئيس أحمد بن إبراهيم العمري السوسي، ثم أخذنا من الأبر النحرير أبي العباس محمد بن محمد الخلاطي الشريف، ثم أبي العباس المذكور، عن سيدي أحمد ابن زعيم، عن سيدي علي بن ناصر الذي أخذها عن سيدي أحمد أوموسى". انظر، الزاوية السملالية في مرحلة التأسيس، ص 54.

[51] إشارة إلى الحديث النبوي الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم: «لا يحل دم امرئ مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة». أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾، رقم: 6484.

[52] المعسول، 120/19.

[53] الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، ص 57.

[54] قد يتساءل القارئ عن مدى صوفية السلطان السعدي عبد الله الغالب، وهذا التساؤل يجيب عنه الشيخ سيدي أحمد أوموسى نفسه لما سئل عمن هو القطب في ذلك الزمان فرد بقوله: "هو أحمد –يعني نفسه– فقال له السائل: ثم من؟ قال: سيدي محند أوبراهيم التَّمَنارتي، فقال: ثم من؟ قال: الملك عبد الله". انظر، الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، ص 64.

[55] رأت بعض الزوايا أن السلطان السعدي بتنازله عن بعض المناطق المغربية، كتسليم منطقة حجر بن باديس للإسبان، والتفكير في التنازل عن القصر الصغير للفرنسيين، يعد متنازلا عن أرضه ودينه، الأمر الذي أدى إلى تفاقم الوضع بين السلطة الحاكمة وسلطة الزوايا، وبعد الهوة بين السلطان وشيوخ بعض الزوايا، الشيء الذي نتج عنه حملة تضييق واسعة النطاق من طرف المخزن السعدي على كل الزوايا المخالفة للتوجه السلطاني.

[56] آل أمغار في تيط وتامصلوحت، مفتاح محمد، رسالة دكتوراه، بجامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط/أكدال الموسم الجامعي، 1985-1986. ص 215.

[57] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون وأن محبة المؤمنين من الإيمان وأن إفشاء السلام سبب لحصولها، رقم:95.